الخضوع المطلق للزعامة ، والانتقاص من قيمة الحريات العامة ، وغير ذلك مما تضمنه برنامج الوطنية الاشتراكية «وانجيل» هتلر . وقد ذهب الوطنيون الاشتراكيون بعيداً فى السيطرة على زمام الحركة العقلية فى ألمانيا ، فبسطوا اشرافهم على الجامعات ، وأصدروا تشريعاً يصفد الصحافة ويجعلها مهنة شبه حكومية ، ويجعل الكتاب دعاة للوطنية الاشتراكية وطغيانها . وكما أن الفاشستية الايطالية بعثت الى الأدب الايطالى بصور رومة القديمة وذكريات الأمبراطورية الرومانية ومجد القياصرة ، وبالطموح الى احياء هذه الذكريات والصور فى حياة ايطاليا وآمالها ، فكذلك بثت الوطنية الاشتراكية فى الأدب الألمانى مثل الأمبراطورية المقدسة الذاهبة ، وصور ألمانيا العسكرية الظافرة الزاهرة تحمل زعامة الجنس الآرى كله ، وتملى على أوربا القديمة ارادتها ومثلها .

وقد كان للانقلابات السياسية والقومية دائماً أثرها فى توجيه التفكير والآداب فى جميع الأمم والعصور ؛ ولكن لعل التاريخ لم يشهد عصراً غمرت فيه القومية المتطرفة والنزعات الرجعية التفكير والآداب كعصرنا ، ذلك أن التوجيه القومى المعاصر يذهب الى حد الأغراق ويتخذ صوراً من العنف لم يسمع بها ، ويحاول أن يسيطر على جميع نواحى الحياة العامة ، وأن يتدخل فى صوغ العقلية الفردية فضلا عن صوغ العقلية العامة . ولا ريب ان الحركات القومية تكسب من وراء ذلك قوة ، وربما كسبت الأمم فى بعض نواحى الحياة المادية حيوية جديدة ، ولكن الحركة العقلية تعرض بالعكس لأخطار كثيرة . ذلك لأن الثورات القومية العميقة تقوم على العوامل السياسية قبل كل شىء ، وتستخدم فى سبيل مآربها سلاح الدعوات المغرضة والنظريات الموضوعة التى لا تقرها المثل الانسانية دائماً ، ولا يقرها العلم الخالص والحقائق المنزهة . والثقافات التى تطبعها أهواء السياسة والنظريات المغرضة ، والآداب التى ترغم على تصوير ألوان مصطنعة من الحياة العامة والحياة الفردية ، وتحمل على تمجيد البطولة الزائفة ، وتمجيد العبودية فى عصر النور والحريات ، وامتهان المبادئ والمثل المقدسة ، وتزييف حقائق العلم والتاريخ الراسخة ، هذه الثقافات والآداب ليست جديرة بأن تقود الأمم العظيمة ، وليست جديرة بالأخص بأن تتخذ مكانها بين تراث الانسانية الرفيع .

٢٥٩

إن تطور التفكير والآداب على هذا النحو فى أمم عظيمة كايطاليا وألمانيا ، هو بلا ريب ظفر جديد للمبادئ والاعتبارات المادية ، ولكن ظفر للمبادئ والاعتبارات المادية على حساب الحياة العقلية والروحية من ظواهر انحلال الحضارات والأمم ؛ وإن حضارة تمجد فيها العبودية ، وتطارد فيها العلوم والآداب ، لأجدر بالعصور الوسطى منها بعصرنا ما ؟

محمد عبد الله عنان
المحامى

من ذكريات فى مصر :

ساعة عند أمير الشعراء

لا أزال أذكر تلك الساعة السعيدة التى هبطت فيها مصر لأول مرة فى حياتى عام ١٩٢٩ فقد كانت مليئة بالخواطر ، فياضة بالآمال ، محفوفة بالاحلام . وكانت الفصل بين ماض راحل ، ومستقبل ماثل ، لقد تذكرت وأنا أجتاز ميدان (باب الحديد) وطرفى شاخص الى تمثال (نهضة مصر) القائم وسط ذلك الميدان الفسيح ، انى قد بلغت ما كنت أتشوف له وأصبو اليه ، فها أنا فى تلك المدينة الجميلة التى طالما تاقت الى مرآها نفسى ، وتزع اليها هواى ، وها أنا فى ذلك البلد الأمين الذى كان ملاك خاطرى وقيد ناظرى ، ومعقد أملى ، ومحط رغبتى ، كم كنت أتمنى فى تلك الساعة لو يتاح لى شهود مصر كلها فاجتلى مافيها ، لقد تمثلت أمامى بحضارتها المزيجة من روح الشرق الخالدة ، أو نفسية الغرب الجديدة ، فعملت فيها كل منهما عملها ، فظهرت من الاثنتين ثالثة كانت رباط الشرق بالغرب ، وجماع شخصيتهما المتباعدتين من أقدم العصور حتى اليوم .

وتمثلت أمامى باعلامها الميامين ، وأبنائها المقاويل ، وأساتيذها الأماثيل . وشعرائها الفلقين ، أولئك الذين تسمع دوى اسمهم فى انحاء الشرق يملك عليك سمعك ، ويأخذ بمجامع قلبك ، فرفعوا اسم مصر وبنوالها فى الادب والفن مجداً أصبحت به محط الرجال وقبلة الآمال . .

رحم الله (شوقي وحافظ) فقد كنت اذا ذكرت مصر أومرت على خاطري الحيَاة في جنبات النيل ذكرت قبل كل شيء (شوقي وحافظ) وانهما يقيمان في هذه المدينـــة القائمة في هذا السهل الوسيع ، يحرسها (أبو الهول) الرابض في كنفها ، هازئاً بالزمن ، ساخراً من هذه الحياة الخاطفة . والحق أن (شوقي وحافظ) أقاما لها من المجد ماأخرس كل لسان ، فملكا على الناس اسماعهم ، وانك لتسمع لها صوتاً يرن في الآذان ، حيثما وليت وجهك في هذه البلاد العربية المترامية الأطراف ، فكان مما أردته وأنا في مدينة شوقي وحافظ ان اراهما حق الرؤية ، وان أعرفهما حق المعرفة ، وهكذا كان . .

لقد أشربت النفوس حب شوقي فخالط اللحم والدم ، لانها كانت تجد فيه فيضاً من العبقرية لاينضب معينه ، وكنزاً من الابريز يزيد في قدره تعاقب الأيام والسنين ، هذا الى ما كان عليه من عظيم الخلق ، ونبل القصـد ، وسجاحة النفس ، وعفـة اللسان ، وحب الخير ، وصلابة الايمان ، والملاحاة عن بيضة الدين والعربية بما حباه الله من صارم ذرب ، ولسان عضب ، وقول فصل ، يدعمه غزارة العلم ، وضلاعة في التأثير ، وشت الخصوم .

رأيت (شوقي) لأول مرة في دمشق بـ (كازينو الخديوية) وكان بالقرب من الطاولة التي كنت عندها فعرفته من غير دليل ، وعرفت أنه الشاعر العظيم بلا لبس ولا مراء ، وان لم يكن يرشدني اليه أحد فما أعظم المثلة بين هذه الاسرة والقسمات وبين تلك التي كنت اتوسمها في صوره في الكتب والمجلات . .

لقد كنت جد شيق الى التعرف به في تلك الفترة من الزمن ، ولكن كم كنت أراني فضولياً اذا قمت بذلك في غير الفرصـة السانحة التي تقضي بهذا التعارف ، فحملت نفسي على ارجاء ذلك الى الظروف والمناسبات . .

وفي عام ١٩٣٠ بعد تجوال أربعة أشهر في سورية وفلسطين ، عدت الى القاهرة للمرة الثانية غب عطلة الصيف . فوجدت الكثير من شباب العرب في معاهد مصر يزمعون انشاء جمعية باسم (جمعية الوحدة العربية) تلك التي طالما كنا نتغنى بذكرها ، ونؤكد وجوب تأسيسها في السنة المنصرمة لضم شمل أبناء الضاد وعقـد تعارف وثيق بينهم على ضـفاف النيل السعيد ، وسرعان مانضجت تلك الفكرة ، فآتت أكلها عن قريب ، ولقد وجدت من (شوقي) رحمه الله خير نصير لهـا ، حريص عليها ، مبشر بها ، فاوفدت الجمعيـة ممثلين لمختلف أقطار العرب كنت أحدهم لتقديم الشكر اليه باسمها ، وتهنئته بابلاله من علته ، فما كان أعظم ابتهاجه بنا ، لقد كان يحثنا على مواصلة مانحن فيه ، ويضرب لنا الأمثال في ذلك بصوته الضعيف المتقطع يخرجـه بتكلف وعناء ، مدعماً اياه باشارات مختلفة من يديه يستعين بها على اظهار مايريد ، لقد كان أسامي في تلك الساعة عظيما كلما نظرت الى الشاعر وما يقاسيه ، التياعاً مما سيصيب دولة الشـعر في المستقبل ، واشفاقاً على شوقي مما هو فيه من داء كامن بالغ ، واعياء شامل وشحوب باد . . .

لقد كان ذلك الاجتماع أول اجتماع عقد صلة للمعرفة بيني وبينه ، وكنت كلما زدت تعرفاً به ، ازددت اعجاباً بعبقريته الفياضة ، وزدت شوقاً الى مجلسـه الجامع لافانين الادب ، وروائع الحكمة ، وطرائف الاخبار وأوابد الملح والفاكهات ، ولا غرو في ذلك فشوقي يمثل عصراً بكامله ، عصراً كان فيه مالك سمعه ، وشاغل لبه ، ومثير مشاعره ، وهو خير مرآة له ، بل خير من سيصوره للأجيال الآتية حق التصوير .

وفي عام ١٩٣٢ عدت الى مصر بعد أن فارقتها ماياهز سبعة أشهر ، وكنت اذ ذاك في ضيق من دروس متراكمة ، اتعارك ما فات ، فشغلتني مشاغل المراجعة والحياة بين الكتب ، والحرص على الوقت القصير من زيارة شوقي وتجديد عهد الاجتماع به . .

وأقبلت طلائع الصيف لهذا العام ، وانتهت أعوام المدرسة اللذيذة ، أو قل الحياة في مصر ، ودنا أوان العودة الى الوطن العزيز ، والتزود من النيل بذكريات على جنباته لا تنسى ، وصور باقية لا تمحى ، فقـد أوشكت أن تكون تلك الحيـاة المغمورة بمختلف الخواطر ، المحفوفة بشتى الالوان ، ذكراً ماضياً ، أوخيالاً ساربا ألم بنائم ، وأطاف بحالم .

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسـمر بمكة سامر

أي والله : لقد أوشكت أن تكون تلك العهود اذ ذاك ، ذكريات دفينة يضيفها الزمن الى خزانته ، تتجدد في نفوسنا كلما

جد عهد ، وهاج بعد ، وحالت حال ، ولاح خيال ، وهاهي اليوم قد أصبحت كذلك ، مطمورة في الصدر ، رهينة في الفكر ، تبعثها لواعج الهم ، وتشب جذوتها كوامن الألم .

قلت لقد دنا الفراق ، فبعد أيام معدودات امتطى القطار الزفوف ، وبعده السيارة الريدة ، الى حيث ملاعب الصبا ، ومجامع الألفة والهوى ، والتئام الشمل ، ولقيا الاهل ، فكان من الواجب بعد هذا وأنا أودع مصر عن قريب أن ألقى « شوقي » ، وأن أودعه ، وما كنت أحسب أن ذلك الوداع سيكون الاخير ، وان ذلك الاجتماع ليس بعده اجتماع ، فكنت قد عقدت النية على الذهاب اليه . والتزود من حديثه العذب ، وبينا أنا كذلك اذ جاءني صديق عراقي يخبرني بدعوة (شوقي) لي معه في داره (كرمة ابن هانئ) ضمن نخبة امجاد من غطارفة مصر ، وأهلة هذا العصر ، فما منهم الا من استفاض ذكره ، وعلا في الفضل كعبه ، ونما في المجد حظه . .

ذهبت أنا ورفيق في الموعد المنتظر الى (كرمة ابن هانئ) ظهراً ، وكنت قد زرتها قبل هذه المرة ، جنة أنيقة زاهية ، نسقت فيها مغارس الزهر ، وخمائل النبت واصص الورد تنسيقاً يبعث البهجة في النفس ، يقوم وسطها قصر جميل يطل على النيل ، ويقابل المقطم مدلاً عليه بما أوتيه من جمال وجلال ، وروعة اخاذة بالالباب ، مستفزة للشاعر ، ذلك لانه مقام الشاعر ومبيت جسمه ، ومهبط وحيه وخياله ، ومرتع شاعريته وتأمله ، ومجتمع أمانيه وآماله ، فله ذلك مادام كذلك . .

دخلنا القصر فاستقبلنا سكرتير الشاعر ، فجلسنا في الشرفة الامامية منه ننتظر قدوم شوقي ، ونتأمل محاسن الطبيعة أمامنا ، هذه مدينة القاهرة تجاه أبصارنا ، كم من خواطر تاريخية تمر على البال في تلك الساعة ، ان الانسان بهذا ليستعرض تاريخ مصر وما توالى عليها من حوادث وفتن وانقلابات وأحوال ، تتزاحم كلها في ذاكرة النا اذا نظر ما أمعن في نظره ، ورجع الى الماضي البعيد ، أجل ! تستثير كل تلك الذكريات مبان عالية مختلفة ، ومنائر ضاربة في الفضاء ، وقبب منتثرة هنا وهناك مختلفة في الاعمار ، تنطق بالعبر ، وتشهد على أن الزمان دول . وكان على جانبي السلم الرخامي تمثالان قائمان يحمل كل منهما شبه مصباح في يديه . فسألني صاحبي عن تعليل لطيف لذلك ، فقلت ان هذا أصدق تخيل يطابق (ديوجيني) وقد حمل سراجاً يدور به في شوارع (اثينا) ليفتش عن الرجل في الليل والنهار ، وفي الاخير بعد تجوال طويل عثر على امرأة خبرها فوجد فيها المثل الأعلى للانسان الذي يبتغيه فقال (لقد بحثت عن الرجل بكل مكان فلم أجده ، ولكني وجدت المرأة) وما أشبه هذا التمثال الصامت الناطق القائم في مدخل الدار حاملاً بيده مصباح الحكمة والهداية بديوجيني ، وكأنه هنا وقف للغادين والرائحين يقول (ها قد وجدت ضالتي المنشودة بعد عصور طويلة ، لقد وجدت الرجل ، لقد عرفت الرجل ، هيا ادخل تر الرجل) .

وأقبل الينا شوقي بعد فترة عاجلة من الزمن متهللا ، فتقدمنا اليه مسلمين ، فرحب بمقدمنا غاية الترحيب . وانتبذنا جانباً من شرفة القصر ريثما يتم اجتماع الآخرين ، وكان الشاعر في هذه المرة التي لقيته فيها خيراً منه في النشاط ودلائل القوة في كل مرة رأيته قبلها ، فقد هادنته العلل في ذلك الحين ، وناهض المرض وصاولة حتى تغلب عليه اذ ذاك ، ولكن من كان يدري أن « شوقي » سيخر صريعاً في الميدان بعد أشهر قليلة من ذلك الانتصار . وان تلك العلل انما كمنت لتتجمع للوثوب ، واختفت متراجعة لتظهر على حين غفلة ، وهادنت خداعاً ، والحرب خدعة ، من كان يدري ذلك ومن المصدق بهذا المنقلب العاجل ؟ . . لقد كان شوقي في تلك الساعة قرير النفس ، رخي البال ، طافح البشر ، وكان صورة من الطبيعة الباسمة في ذلك اليوم ، وهكذا يكون الشاعر هو والطبيعة صنوان لا يفترقان . . تنظر اليه فتقرأ في جبينه المتغضن خطرات السنين المتعاقبة ، واصداء الزمن الماضي بما فيه من حوادث وشئون ، كان لسانها الناطق وحافظها للأجيال المقبلة من الاندثار ، فاذا أمعنت في سطور ذلك المحيا داخلت نفسك هزة وانتفاضة هي هزة الاجلال والمهابة ، حيث ترى ذلك العقل الجبار من وراء ذلك المحيا ، وذلك الذهن المتقد يشع نوراً وحكمة ، وذلك الخيال المطلق أعني به خيال الشاعر أو روح الطبيعة الثاني ، ذلك الذي يهيم في كل واد ، ويسبح في كل لجة ، فيحلق مع الطيور في سمائها ليساجلها أنغامها ، ويعانق الطبيعة في خمائلها ويتغنى بجمالها ، وقد تراه فتبصر فيه خفة السرور وتقرأ عليه نضرة

النعيم ، وقد تراه فتجده بائساً لبؤس غيره . أنيس المحزون ، وعزاء الضعيف ، يشفق على المنكوبين وتذهب نفسه حسرات عليهم وتقرأ في عينيه الذابلتين اللتين أتعب أجفانهما السهد وتعاقب الزمن ، صفاء السريرة ، وعفة القلب ، وحدة الذكاء ، وهي خير مترجم عن قلب الشاعر ، ذلك القلب العامر بالفضيلة والخير . واذا استمعت الى حديثه العذب أسرتك طلاوته ، واجتذبتك حلاوته ، يلغ الى فؤادك قبل سمعك فلا تمل منه لغة ، ولا تسأم فيه لهجة ، وشوق اذا حدث تخير ماراق لسامعه ، ورقت حواشيه ، واتى بكل طريف قشيب ، تسهله طرافة في التعبير ، وتختمه دعابة أو عبرة في الحديث تقتضيها الحال ويستدعيها المقال . وكان الحديث جامعاً وكان اقبالنا عليه بالغاً ، تناولنا شئوناً مختلفة في أحوال (العراق) والادب العربي في هذا العصر وبعض مشهوري الشعراء والكتاب ، وقضينا في هذا حيناً حتى قدم علينا الاستاذ محمد عبد الوهاب ، وكان حديث القدوم من العراق ثم اكتمل العقد ، وانتظم الجمع فنهضنا الى داخل الدار حيث مائدة الطعام . ولا تسل عما كان يدور حينذاك من مفاكهات عفة . وملح آبدة ، ونوادر طريفة ، ساقها فرسان مشهورون في مصر في هذا المضمار . مصلون به ، والفكاهة والظرف والتندر من الغرائز التي طبع عليها المصري ، وهي من خصائص دمه لا تفارقه ، والذي يزيد فيها قوة وحسن وقع في النفس أنها تعرق من اللسان عفواً وتنطلق من غير تكلف وتعمل . . ترجيها الطبيعة ، ويقذف بها الظرف اللائم ، ولسرعة البديهة وحدة الخاطر أثر لا ينكر في سوقها . .

انتهى محفل الغداء فجلسنا بعده برهة قصيرة حتى اقترب موعد سفرنا من مصر في ذلك اليوم ، فتنازعنا عاملان : عامل البقاء والاستمتاع بهذه الاحاديث الطلية ، وعامل الجلاء الى حيث ينتظرنا القطار الذاهب الى فلسطين ، وفراق مصر على مضض ، فتغلب العامل الثاني واذا نحن في قطار المساء يزفر زفرة الوداع ، واذا بنا نودع من عز علينا وداعهم . واذا بنا نستعرض صفحات وذكريات ماضية واذا بنا نفارق أرض مصر وندخل في أرض الميعاد . . .

بغداد — كمال ابراهيم

أقدم مكتبة في الشرق العربي

﴿ مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ﴾

(تأسست سنة ١٨٥٦)

بها أكبر مجموعة من المؤلفات الدينية والأدبية والعلمية

لها نشرات خاصة بالمطبوعات العصرية ، وترسل فهارسها مجاناً لمن يطلبها

العنوان :

مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده

صندوق بوستة الغورية رقم ٧١ — بمصر

الادارة :

شارع التبليطة نمرة ١٢ — بجوار الأزهر الشريف — تليفون ٥١٣٢٢

أحدث المطبوعات

جمهرة خطب العرب

في عصور العربية الزاهرة

تأليف

احمد زكي صفوت

مدرس اللغة العربية بدار العلوم

الجزء الأول : يشمل خطب العصر الجاهلي والخلفاء الراشدين

الجزء الثاني : يشمل خطب العصر الأموي

الجزء الثالث : « « « العباسي وخطب الأندلسيين والمغاربة ، وخطب النكاح ، وخطب من أرتج عليهم ، ونوادر طريفة لبعض الخطباء الخ ...